د . نور الدين حاطوم

تعليق على بحث ((الابعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي)) للدكتور شاكر مصطفى

يطيب لي ان اشكر الاخ الكريم الدكتور شاكر مصطفى على بحثه الخير المعطاء في ((الابعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي)) . فلقد جال في رحابه جولات موفقة ، وتناول ابعاده بالبحث والتنقيب والغوص في اعماقها ومتاهاتها ، والوصول الى مجاهيل بعيدة عنا تطورت عبر الزمان والمكان ، وتركت آثارها الباقية في اعماق نفوسنا ، وما زلنا نتأثر بها في مجتمعنا العربي عن وعي وغير وعي الى ان وصلت به الى ما هو عليه من تخلف نشكو استمراره بعد ان عصفت بنا رياح التغيير مؤذنة بالخطر وفداحة البقاء على الماضي التاريخي ومخلفاته التي اصبحت لا تتماشى وروح العصر . ولقد عالج الدكتور شاكر هذا البحث بقوة التحليل التاريخي وسحر البيان المشرق ، فجمع بين العلم والفن ، ومالي ، بعد ، من سكرين من بد .

ازمة التطور الحضاري ، في وطننا العربي ، تتجلى في هذا التناقض الذي يبدو واضحا بين معطياتنا التاريخية ، وما وصلت اليه حضارة العصر من تطور متسارع . ونحن على عتبة هذه الحضارة في حالة تردد وارتباك بين ما يجب ان نترك من نظم ماضينا جزئيا اوكليا، وما يجب ان نأخذ من مسلمات الحاضر المتقدم . وليست هذه العملية بالتي يمكن تحقيقها بسهولة في الواقع . وازمتنا التي نعيشها هي كيف يمكن ان نتواءم ونتلاءم ونتكيف مع هذه الحضارة الحديثة التي ليس لنا فيها يد ، الا في ماضيها السحيق . وقد يكون احساسنا بالمستقبل وخوفنا على اجيالنا الاتية ، مع ما نحن عليه من تخلف امام مد الحضارة الصاعد ، مما يزيد في اتساع المسافة وعمق الهوة ، ويجعلنا نعترف سلفا اننا غير قادرين على اللحاق الا باليسر البطيء جدا .

لقد انطلق الدكتور شاكر في بحثه من واقع العرب الحاضر ، وتناول اطره الكبرى التي تشكل وحدة متكاملة وهي :

١) مستوى الفكر التاريخي وعلاقة الانسان العربي بالزمان ، ومستوى الحياة العربية نفسها .

٢) نظام السلطة .

٣) العلاقات الاجتماعية .

٤) المعطيات التراثية في الفكر العربي (الايديولوجية الفكرية . اللغة والتعبير) .

وقد يضيق الوقت اذا اخذت كل نقطة من هذه النقاط وحاولت ان اشرح الانطباعات الكثيرة والتساؤلات الجمة التي تدور حولها ، ولكني اجملها بما يلي :

البيئة الحضارية :

الحضارة العربية انتشرت في بيئتين بدوية وريفية متجاورتين ، وكلتاهما تتم الاخرى . ولكن حياة البداوة القائمة على عدم الاستقرار والترحال والانتجاع كثيرا ما كانت عامل غزو وهدم ، وفرض سلطة وضريبة ((خوة)) على المجتمع الريفي والحواضر المدنية . يضاف الى ذلك ان البيئة الزراعية ، بحياتها الروتينية التي لا تتغير ، تركت آثارها عميقة . فالفلاح بطبيعته في بلادنا محافظ ، حياته بسيطة ، متطلباته محدودة ، وآماله قاصرة ، والمحراث الروماني القديم ظل يشق تراب الارض منذ مئات السنين ولم يتغير ، والطرق الزراعية بقيت على حالها لم تتطور . هذا فضلا عن ان الافكار والعادات والتقاليد تجد ، في هذه البيئات الطبيعية ، صناديق للادخار ، وخزائن للحفظ . والسؤال الذي نطرحه على انفسنا هو كيف يمكن تحريك هذا الجمود، وكسر ((الروتين)) اليومي ، واخراج هذه الاوساط من عزلتها وقلبها رأسا على عقب كما يقلب المحراث التراب .

قضية الرجوع الى التاريخ :

النهضة العربية الحديثة ، كسائر النهضات التي سبقتها او رافقتها ، وآلت من بعد الى تشكيل الدولة القومية ، اعتمدت على التاريخ ، وجعلت منه مقوما اساسيا من مقوماتها القومية . والقومية رجعة الى الذات ، الى الانا ، الى القوم ، الى العنصر المميز ، الى الاصالة ، الى الماضي . والتاريخ العربي بمحتواه الواسع العريض ، يضم في تضاعيفه كل ما انتجته البشرية العربية في عمرها المديد من اعمال مجيدة ومن تراث حضاري . فهو ، في هذا الاعتبار ، ذاكرة العرب الحية ، وسجلهم الحافل بالامجاد والالام . والعرب اليوم يرجعون الى تاريخهم لا ليعتزوا به فحسب ، بل ليتخذوا منه عبرة ودرسا . وبتعرفهم على تاريخهم يزداد شعورهم بوحدة امتهم وحضارتهم ، وتتطلع آمالهم الى خلق حضاري جديد يصل حاضرهم بغابرهم ، ليتألف من كل ذلك كتلة اتصال قوية متماسكة تساعد على بناء المستقبل .

والقضية التي يضعها التساؤل هي انقاذ الجماهير من المفهوم السكوني للتاريخ ، وتفسيره الخاطىء بالنوم على امجاد الماضي واتخاذه ((مهربا)) ((وقارب نجاة)) للفرار من الحاضر . ولا انكر ان التاريخ قد استخدم في حاضرنا المعاصر ، وضرب على وتره كثيرا ، وان هذا الايقاع يتزايد يوما بعد يوم . ولعل تفسير هذه الظاهرة يرجع الى اننا ما زلنا بعد في مطالع حياتنا القومية الجديدة ، وان حركة القومية العربية والوحدة العربية تشغلنا وتملأ نفوسنا وتقرع اسماعنا. ودعاة القومية ولا شك ، يرجعون الى التاريخ ، وهو في فكرهم التاريخ المتحرك النابض بالحياة ، المتطور والمتجدد على الدوام ، لانه جريان

مستمر ، وبناء متكامل مع الزمان ، لا يقف عند حد ولا رجعة فيه الى الوراء ، انه خلق وابداع لا يعرف التقليد والمحاكاة . هكذا يفهمه العرب القوميون . واذا حانت منهم التفاتة نحو الوراء فليجمعوا القوى العتيدة في الوطن العربي ، ويؤلفوا بينها ،ويوحدواامكانياتها لتحقيق الذات القومية ، والانطلاق منها الى الامام ودون رجوع . ولست بمنكر، بعد ، ان بعض الفئات في بعض الاوساط العربية اساءت استخدامه لتبرير وجودها اكثر مما استخدمته لتقدم قومها .

يقول بول فاليري : « التاريخ اخطر العقاقير التي استحضرتها كيمياء العقل . ان خواصه معروفة جيدا . انه يشمل الشعوب ويولد فيها شتى الاحلام والذكريات الخاطئة ، ويبالغ في رد فعلها ، ويبقي جراحها القديمة حية لا تندمل ، ويزعجها في راحتها ، ويذهب بها الى هذيان العظمة او الى هذيان الاضطهاد ، كما يجعل الامم فظة غليظة القلب متغطرسة » .

قضية تبدل الاحكام بتبدل الازمان :

واثير هذا التساؤل لم لا تتبدل الاحكام بتبدل الازمان ؟ !

ان المشاكل المعاصرة وما يكتنفها من صعوبات وتعقيدات تتطلب حلولا ملائمة وسريعة . وهذه المشاكل ، بذاتها ، تختلف كل الاختلاف عن المشاكل السابقة ، ولكل عصر معطياته ، وحلها لا يكون بالرجعة الى التاريخ والبحث في ثنايا الماضي ، لان التاريخ يبرر كل ما يراد ، ويعطي امثلة من كل شيء ، انه بحر زاخر بالنماذج والقواعد والامثولات، وما على المختار الا ان يختار . وعندما تطرح المشاكل وتتطلب منا حلا ، نلتفت الى السوابق ونلجأ الى التقليد عوضا عن ان نتبين حالتها الراهنة ونتفهمها جيدا ونبدع في حلها . وهكذا يغذي التاريخ. ونحن في هذا العصر يكفينا ضغط الاحياء ، ولا نريد صراحة ان نحكم بالاموات . لقد اجتهد المجتهدون الاوائل بما فيه الكفاية بقدر ما سمحت به ظروفهم وثقافتهم ، وكانوا مجتهدين حقا ، لانهم جابهوا قضاياهم وعرفوا كيف يحلونها . اما نحن فما زلنا نترسم خطاهم ونبحث عن حلول مشاكلنا عندهم ، وهم غير قادرين حقا على حلها ،لاختلاف الزمان والمكان والبشرية . ولقد آن اوان الاجتهاد الجديد بما تقتضيه روح العصر الحديث ، وعلى ضوء العلم الجديد والظروف الموضوعية المتغيرة ، واعادة النظر بالتراث القديم ، والقيام بحركة انسانية عامة تتحرى آثار السلف وتخضع نصوصها لقواعد النقد العلمي وتقييمها من جديد .

قضية التراث الفكري العربي ومعطياته

وهناك تساؤل حول التراث الفكري ومعطياته . يقول الدكتور شاكر :

« ولعلنا نستطيع دون كبير ابتعاد عن الواقع ان نرد النسيج الاولي لمعطياتنا الفكرية التراثية الى ما بين اواخر العصر الاموي ومطالع العصر العباسي الثاني . تلك الفترة الممتدة ما بين مطالع القرن الثاني الهجري واواخر القرن الثالث هي فترة الربيع في العطاء الفكري الاسلامي . ما كان بعدها فانما كان بيادر الصيف ومواسم الثمر الناجح لقرن او قرنين ، ثم كان الذبول البطيء المتمادي عدة قرون . العلم الاسلامي ، بمختلف اسسه وطرائقه وفروعه ، انما وضع في تلك الفترة الخصبة ، فنحن عيال عليه الى اليوم .وعلوم الاوائل انما تعربت واصبحت قطعة من الثقافة العربية الاسلامية ،واخذت اقصى ابعادها في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء ، في تلك الفترة ايضا ، فلم تضف اليها القرون التالية بعد النضج من جديد ».

وفي الحقيقة ان العمل الفكري بعد هذه الفترة لم ينقطع، ولكن القرائح جف معينها ولم تأت بجديد . وبطل الابداع واخذ يلهث ولكن لم تنقطع انفاسه وترتب على ذلك ان لاقت الثقافة العربية دورافول وركود . وهنا نتساءل ما سبب هذا الافول والركود ؟ هل يرجع الى طبيعة المزاج العربي المعروف بالفورة الحماسية ، والملل السريع ، وضيق الصدر وقلة الصبر ثم الخمود ام ان الضغوط الداخلية المختلفة والخارجية المحيطة هي التي كانت لها عوامل تهديم ؟

قضية الحكم في البلاد العربية :

واثار الدكتور شاكر في نفسي تساؤلا عن طبيعة الحكم في البلاد العربية . وقد بدأ هذا الحكم في الحياة العربية ـ الاسلامية ،عندما انتظمت امور المسلمين ، بالاعتماد على القرآن والسنة والشورى، تاسيسا وتشريعا وتنفيذا . وما لبث مع الزمن ان اصبح استبداديا مستندا احيانا قليلة،ومظلما احيانا كثيرة .هل يرجع هذا الانحراف الى النزعة القبلية ، او التسلط العسكري الاجنبي ، او الى عدم فهم الروح الاسلامية واساءة التطبيق ، او الى اختلاط المنافع الدينية بالمنافع الدنيوية ؟ وفي الحقيقة ان الغزو، الذي عاث في الارض العربية ، كان من طبيعته ان يحكم البلاد حكما عسكريا مع ما يلابسه من خوف ، ورياء ، وتقرب وزلفى الى الحكام .

وفي العصر الحاضر ايضا ، يثير الحكم العسكري تساؤلا : وهو لم ساد الحكم العسكري في بعض البلاد العربية ؟ ربما يكون الجواب في ان البلاد العربية قد حكمت طوال القرون الخالية بالحكم العسكري حتى الفته واعتادت عليه وصار شيئا ملازما لها ،ونظرت الى الحكم الديموقراطي الحر الذي ساد فيها بعد الحرب العالمية الثانية ، بانه فترة غير طبيعية ، ولذلك عادت سريعا وقبلت الحكم العسكري. ان التفسير الذي نراه هو ان البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية كانت حديثة العهد بالحكم الديموقراطي ، وقد جابهت هذا الحكم مصاعب جمة اقتضتها ظروف البناء والانشاء من جديد وعجز عن حلها ، فمال الشعب العربي عنه ، والتمس الحل البديل عند دعاة الحاكم القوي الذي يحقق الامال وينقذ العرب ويحرر بلادهم من رجس الصهيونية . وهكذابقي الحكم العسكري ولما تتحقق الامال . وبعد فهذا قليل من كثير .

ان العرب في واقعهم الحالي يواجهون التحديات التي تقف في سبيل تطورهم ووصولهم الى المجتمع العربي الامثل الذي يتطلعون اليه بلهفة وحنان . وان قدرتهم على مواجهة هذه التحديات والتغلب عليها تفتح امامهم سبل الخروج من واقعهم وتحقيق التطور المنشود . انهم يواجهون تحديات خارجية تتمثل بالمطامع الصهيونية دون حدود ، ووجود دولة اسرائيل ، في قلب الوطن العربي الكبير ، واطماعها التوسعية ، وفي النفوذ الامبريالي الساحق وتسلطه على البلاد العربية بما يحمل هذا التسلط من معاني سياسية واقتصادية وثقافية خطيرة . كما تواجه البلاد العربية تحديات داخلية في التفجر السكاني المتسارع . وهذا التفجر يضع قضايا كثيرة عندما يراد تحريك عجلة التقدم والقيام بالتنمية ، وتعميم الرفاه ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، والتطلع الى بناء المستقبل على اسس عقلانية تقوم مقام القواعد البالية التي لم تعد صالحة لهذا الزمان المتسارع التطور والتغيير .

ان الاستجابة لهذه التحديات لا تقبل الهرب او الامهال او المماطلة عندما يراد خلق حضارة عربية جديدة .

ان الاستجابة لهذه التحديات لا تقبل الهرب او الامهال او المماطلة عندما يراد خلق حضارة عربية جديدة . وهذه الحضارة بحكم ظروفها الموضوعية لا يمكن ان تكون استمرارا للحضارة الكلاسيكية بعد ان تغيرت الظروف . واذن لا بد من التكيف مع روح العصر . وعلى الفكر العربي العالم الثائر على الحاضر بذل قصارى الجهد ، وبكل ما اوتي من قوى خلاقة ، ان يعمل على تحقيق التطور المنشود ليكون على مستوى رسالته التاريخية ، رسالة الانسان المثقف ومستوى مسؤوليته القومية .